القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

المدنية

المدنية هي حالة من الثقافة الاجتماعية تمتاز بارتقاء نسبي في الفنون والعلوم وتدبير الممالك. وتكفي كلمة «نسبي» الواردة في هذا التعريف للدلالة على ان التدرج الذي تم ليس تدرجاً متقطع الاوصال بل متصل الحلقات تبتدىء الدرجة اللاحقة منه حيث تنتهي السابقة . واذا كانت المدنية في التحليل النهائي هي عبارة عن حاصل الاعمال التي انجزها الانسان فلا جناح علينا ان نصف بعض المعجزات التي تمت في عالم الحيوان بانها مدنية ايضاً وندونها في سجل الحضارة . فالذئاب مثلاً تؤلف العصابات للصيد ، والنمل يخوض غمار الحرب ، والنحل يزاول الصناعة ، والوعل يقيم الحرس عندما يرعى ، والتنظيم «العائلي» بشكليه من فردٍ وتعدد الزوجات موجود في بعض الحيوانات العليا وقد تربي هذه الحيوانات صغارها بما يطلق عليها من دروس عملية وأمثلة حسية ، وتكون علاقة الكلب بسيده في بعض الاحيان علاقة اخلاقية سداها الاخلاص ولحمتها المحبة . ولبعض القردة من الاعمال المستغربة والحيل المستنبطة ما يدعو الى العجب العجاب . وقد صار ذكاء الفيلة مثلاً من الامثال . وقد تتعذر كثيراً رؤية الحد الفاصل في هذا الموضوع بين الحيوانات العليا وأحط المتوحشين وربما ادت المقارنة في ذلك كما يقول احد العلماء الى تفضيل الحيوان على الانسان

بيد ان هنالك فرقاً واضحاً بين عمل الانسان وعمل الحيوان . فما يعمله هذا هو بالاجمال غريزة عمياء لا تدل على غاية ذهنية ولا احاطة بالوسائل المتخذة في حين ان ما يعمله الانسان ولو قام في بعض الاحوال على الغريزة هو عمل متصل بالادراك وله غاية موضوعة نصب العين

وجرت عادة الكتاب المتأخرين انهم اذا اطلقوا كلمة «المدنية» ارادوا بها المدنية الحاضرة في مقابل الهمجية التي كان عليها البشر في الازمنة الخالية او التي لا تزال بعض الاقوام المنحطة تعيش في كنفها . والانسان لم يبلغ مدنيته هذه الا بعد ما جاز ادواراً خطيرة اندثرت معالمها

وغابت معظم اخبارها عن اعين التاريخ . وقد قسمها الاستاذ (جدنجز)[1] الى ثلاثة ادوار فالدور الاول مثلاً او دور التأسيس تمثله المدنيات القديمة على عهد الفراعنة والبابليين وهو يتصف بضعف التوادد ودقة اواصر الصفاء بين المجتمع الواحد وما عاثله من المجتمعات الاخرى او بفقد هذا الاتصال بتاتاً. ويكون اصحاب هذا المجتمع مجبرين على الدفاع عن انفسهم بصورة مستديمة في وجه ما يحيط بهم من العالم المتوحش او في وجه مجتمع آخر يزاحمهم ويهددهم، يعني ان قوى الشعب تنصرف اولاً الى التضامن السياسي بين الافراد وتأسيس النظم العسكرية لدفع العوادي ولضمان السلامة

ثم متى تحققت هذه الاهداف يبتدىء الدور الثاني وهو يمتاز بالتغلب على سياسة الحصر والتضييق التي اقامتها النظم العسكرية فيتحرر الشعب عقليًّا وشخصيًّا . ويتجه الانتقاد من رجاله شطرَ التنظيم الاجتماعي وما فيه من مواطن الضعف . وتمثل هذا الدور المدنية اليونانية والمدنية الرومانية على عهدي اثينا ورومية . بيد ان هاتين المدنيتين وقفتا دون الوصول الى الدور الثالث لانهما لم تكونا ثابتتين مستقرتين وكانت ثروتهما الخارقة مطمح الانظار ومثار الاطماع في الاقوام المتوحشة الى ان تغلبوا عليهما كلتيهما وسحقوا حضارتهما.

اما الدور الثالث وهو ما وصلت اليه الدول الغربية الحاضرة فهو اقتصادي واخلاقي يعني ان هذه الدول منهمكة اليوم في الشؤون الصناعية وفي جمع الثروة واستكشاف طرق استخدامها وفي التربية العامة ونشر الثقافة

وغني عن البيان ان الدول الاوربية ما بلغت الدور الثالث هذا الاّ بعد ان مرّت في اختبارات الدور الثاني وانصهرت في بوتقة الانقلابات الادبية والثورات الاجتماعية منذ «النهضة» الادبية في القرن الخامس عشر الى الثورة الفرنسوية وما تبعها من ثورات ؛ وان الضجة القائمة في اطراف العالم اليوم حول الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية ان هي الاّ نتيجة من لوازم النهضة الاقتصادية والاخلاقية الخاصة بالتطور الحاضر

وقد فضلنا هذا التقسيم الذي قال به الاستاذ (جدنجز) على غيره لما اشتمل عليه من ذكر التغير الذهني في الشعوب من جهة والتبدل البنائي في المجتمع من جهة اخرى فهو معنوي حسي في آن واحد

هذا هو تقسيم المدنيات ففي اي دور نحن يا ترى من هذه الادوار الثلاثة ؟ سؤال يختلف الجواب عنهُ باختلاف القطر العربي المقصود فسورية مثلاً تصرف الجهود الغالية في سبيل تكاملها السياسي واستقلالها وقد دخلت في دور من ادوار النشوء الصناعي الاقتصادي يعدّ ناشئة خير وعنايتها بالتربية والتثقيف تسير سيراً مضطرداً في حين ان بعض القبائل في الجزيرة

(١) The Principles of Saciology IV. P. 299

العربية هي في حالة حرب مستمرة مع القبائل الاخرى او مع المحيط الطبيعي فكأنها لا تزال في الدور الاول . وهنالك اقطار اخرى في هذا العالم العربي تعيش من بعض الوجوه تحت السلطة الاكليركية التي كانت منتشرة في القرون الوسطى

والواجب على قادة الفكر في هذه الاقطار المترامية الاطراف ان يحفزوا من لا يزالون يتلخون في الادوار المدنية الابتدائية من ابناء العرب ويدفعوهم الى الامام توطئة لتكاملهم السياسي واستقرارهم الدولي وتنظيم شؤونهم الاقتصادية والمعنوية

ويحسن بنا تنويراً للاذهان ان نشير هنا الى ما ذهب اليه (اوغست كونت) الحكيم الفرنسوي المتوفي سنة ١٨٥٧ في فلسفته الحسية من ان الدستور الذي يسير بمقتضاه التاريخ البشري هو تدرج الانسانية في دورين استعداديين سابقين توطئة للدخول في الدور النهائي الثالث(١) . فالدور الاول عنده هو الدور «اللاهوتي» يوم كان العقل البشري يفسر الاسباب ومسبباتها بتدخل مباشر من الآلهة بطريق الخلق او العناية . وما دام الانسان على هذه الذهنية في فهم العالم فلا سبيل الى ادراك العلم الصحيح لان العلم انما هو معرفة العلاقة بين الاسباب ومسبباتها ، ولا الى الارتقاء المادي او المعنوي لان الشرط الجوهري في هذا الارتقاء انما هو الحصول على العلم الصحيح . وقد كان الانسان خرافياً في هذا الدور ذا عقلية صبيانية ومنهمكاً في عبادة الابطال . اما الدور الثاني فهو دور البحث في ما وراء الطبيعة اي ان الانسان لما لم يعد موقناً بأن الخوارق هي سبب الحوادث المحيطة به فاخذ يفسر الدنيا بالقواعد والنظريات المجردة فأضاع نفسه في تيه من نظر عقيم . وغير نكير ان العقل تحرر في هذا الدور من عبودية الخوارق الا انه اضاع قواه في السؤال عما هو مجهول في كنهه ومحجوب في جوهره . واما الدور الثالث فهو الدور الحسي او العلمي يوم زالت النظريات فحلت محلها الملاحظة والتجربة والاستقراء والقواعد الكلية الشاملة . وقد وجد الناس ان عالم الحقيقة التي يمكن الوصول اليها هو عالم متسع الى درجة تكفي لاشغال جميع اوقاتهم واستغراق جميع قواهم . وباتخاذهم الحقائق اساساً مكيناً للبناء اتيح لهم ان يعرفوا من الطبيعة اسراراً مكنتهم من التغلب على الاحوال المادية وعلى شطر كبير من الاحوال المعنوية للحياة الانسانية فسار العالم في سبيل التقدم والارتقاء

وقصارى القول ان لدينا بعض العلامات الوثيقة لتعيين درجة المدنية التي عليها الشعوب فحينما يكون الفرد خالياً من فكرة الاسباب ومسبباتها قائماً بانهُ خيال الظل تسيّره الارواح بينما كما تشاء كأنهُ ريشة في مهب الريح طائرة لا حول له ولا طول — حينما يكون الفرد على هذه الشاكلة عبداً لاوهامهِ الباطلة وعقائده السخيفة واحلامه الطليقة فالمدنية ابتدائية . وحينما

(١) Cours de philosophie positive vol. IV. P. 653

يكون الفرد قانعاً بان ما يصيبهُ هو من نفسه او من عمل الناس حواليهِ — الا في الكوارث الطبيعية الكبرى كالزلازل وتفجر الحمم من البراكين — وحينئذ يعلم انهُ لا يتغير ما لم يغير ما بنفسهِ فالمدنية مدنية العصر الحاضر. قال الاستاذ (بايندر) « والفرق بين المدنية والهمجية هو في امر جوهري واحد وهو ان الانسان المتمدن لا يكل حماية روحه الى احد في حين ان الهمجي لا يكاد يعدّها ملكاً له »(١) وضرب على ذلك مثلين من اليونانيين القدماء ومن اليهود العبريين فقال عن هؤلاء ان مدوّناتهم تدل على فقدهم للحرية . قال (يَهْوَه) قد ادار دفة حياة اليهود وسيّرها من الاصحاح الاول في سفر التكوين وهو اول التوراة الى الاصحاح الاخير من سفر ملاخي وهو آخرها . وهو معبود قاهر متقلب حكم بعصاً من حديد وسحق بلا شفقة جميع من عصوا امره ، حتى ان (قورش) ملك الفرس العظيم لم يكن سوى آلة بيده يسخرها لغاياته الذاتية كما يسخر الخزّافُ الصلصال . وكان النصر بيده يعطيه شعبه اذا هم اطاعوا وسلموا . وايضاحاً لهذا الامر بصورة جلية امر نبيّهُ (جِدْعُون) ان يصرف اثنين وعشرين الفاً من رجاله (لئلا يفتخر اسرائيل على الرب قائلاً ان يدي خلصتني) . لكن الآلاف العشرة الباقية معهُ لا تزال كثيرة لذلك امره ان ينتقي ثلاثمائة رجل فقط ففعل ، والى يد هذه الشرذمة القليلة سلّم (يهوه) المديانيين جميعاً

«وبيد (يهوه) كل شيء الحصاد والصحة والحياة والموت ، فاذا ما اصاب الشعب خيرٌ فمن (يهوه) واذا ما اصابهم شر فبما اقترفوه من المعصية والوثنية ، ولم يكن في طاقة الرجل العبري ان يتحرك حركة ما لم ترشده يد (يهوه) ، فهو الذي كان يمن عليه حتى بالنوم اللذيذ . وقد دام هذا الرأي الخالي الى عصرنا هذا في الفرقة البروتستنتية المتشددة المعروفة بطائفة «البيوريتان» . وتدل القائمة الطويلة باسماء الشرور المذكورة في الاوراد الكنسية مع المعروض المرفوع الى السماء وهو « انقذنا ايها المولى الرحيم » على ان هذا الموقف الابتدائي لا يزال حياً في اوساط اخرى ايضاً

« وبديهي ان مثل هذا الاتجاه التوكلي المطلق والاستسلام للعوامل الخارجية ولو كانت طافحة بالخير لا ينشيء الرجل المنشود — الرجل الحرّ المستقل المعتمد على النفس والشاعر بالحرمة الذاتية والذي يتحمل التبعة على عمله ويصيبه اللوم على فشله كما يصيبه السرور على نجاحه . وما هدف الجمعية الا انشاء مثل هذا النوع من الرجال . وحينما لا يوضع هذا الهدف الاسمى نصب العيون بصورة دائمة فهناك فشل مسجل . ولم يخلق المجتمع في الاصل لجعلنا اكثر ثروة او ليوفر علينا الجهد والكدّ او ليزودنا بالبهجة والحبور بل هو حادث لانشاء الرجل المستعد لان ينتصب على قدميه الاثنتين والعالم بانهُ محاسب على عمله والشاعر بالسرور من هذه المسؤولية . وقوة المرء على تعيين مصيره بيده هي قوة يعجب بها الرجل الحرّ ويبالغ في قيمتها اكثر من

(١) "Major Sociol Problems". Chap I.

كل شيء آخر . هذه هي القوة التي تميزه عن الآلة الميكانيكية وتفرقه عن خشبة طافية على وجه النهر ، فتلك تنفذ ارادة غيرها وانما هذه فلعبة بيد القوى الطبيعية الجامدة ، وكلتاهما يستولي عليها محيطها في حين يستولي الانسان على محيطه ، بل ان الحيوان نفسه قليل التأثير في بيئته وما انقراض الانواع بعضها وتطورها الا شاهد عدل على ذلك » اهـ

هذا هو الدليل الناطق الذي اتخذه الاستاذ (بايندر) فيصلاً للتفرقة بين الهمجية والمدنية . ومن العجيب ان تحدث الازمات المعقدة المتنوعة في اوربا في ايامنا هذه ردّ فعل يكاد يعود ببعض الجماعات الى هذه الحالة الابتدائية . فقد زار مصر في صيف السنة الماضية بعثة من خريجي جامعتي اكسفورد وكامبردج في بلاد الانكليز وقد عرفت ان اعضاءها ينتمون الى تنظيم حديث ينتشر في انكلترا انتشاراً سريعاً واساسهُ ان يستسلم المرء للسماء استسلاماً مطلقاً من كل قيد بحيث لا يفكر في غده وان يطهر قلبه من ادران الشرور . وعند اصحاب هذا التنظيم الروحي ان عملهم هو العلاج الشافي من الارتباكات التي تسود العالم اليوم سياسية كانت ام اقتصادية . وقد قلت في نفسي ان الشرق الذي ينفض غبار الهرم عن مناحيه الجديدة طافح بعقائد الاستسلام على هذا النمط ما كان هذا لحملات رجال الاصلاح الديني في العالم الاسلامي منذ ايام السيد جمال الدين الافغاني الى اليوم ، وكلهم يجمعون على إيقاظ المسلمين وتحذيرهم من الوقوع في بئر التوكل الاعمى . والظاهر ان تعقد هذه الازمات الحاضرة والاخطار التي قد تنشأ عنها والانقلابات الاجتماعية التي قد تتصل بها كل ذلك ادّى بهذه الجماعات الى شيء من الكلل والانهيار العصبي حتى اصبحوا يرون السلامة في عدم المقاومة والفلاح في ترك الكفاح . ويزيد في غرابة هذا الموقف ان يكون مهدهُ جامعتي اكسفورد وكامبردج حيث التقاليد الانكليزية التوسعية على اتمها . ولو نصحنا الناشئين في الشرق بترك الكفاح وبالاستسلام للقضاء والقدر لاتهمونا بالرجعي وبتسهيل الانتحار

ويحسن بنا الا نمرّ على كلام الاستاذ (بايندر) من غير تعليق وابداء ملاحظة ، فالاستسلام الى الارواح المسيطرة يكون علامة على الهمجية متى كان المستسلم كلاًّ لا يسعى الى شيء وخرافياً يعلل الطوارىء والظواهر بفعل هذه الارواح المباشر — فالبرق والرعد والمطر والبركان والموت والحياة والهول والنور والحرارة كل ذلك في نظره ارواح مستقلة . فمثل هذه النظرة الهمجية تحول دون كل تفكير وارتقاء ، ولكن متى تعددت المسالك وتعقدت الامور وتعذرت الاحكام ووصلت العقول الى منتهى ما تصل اليهِ من السعي والاستقراء والاستنتاج ثم وقف المرء حائراً لا يدري ماذا يعمل — متى بلغت الحال بالساعي المجد هذا المبلغ فلا اخاله همجياً اذا هو سار في الطريق التي وقع اختياره عليها اخيراً متوكلاً ومستسلماً . ومثل هذا التوكل والاستسلام الصوفي هو الموقف النهائي الذي لا مفر لنا منهُ في كثير من المذاهب

لكن الويل ثم الويل للامم التي اذا رأت نخطر المدام وقفت مكتوفة الايدي كأنها غنم تساق الى المسلخ ، فالرضاء هنا هو الموت والقبول هو المذلة

وفي الحق ان الارتقاء يكون في اكثر الاحيان محاطاً بالمغامرات محفوفاً بالاخطار لا يتم من غير اقتحام جريء للمناطق المجهولة . ومن ظن ان الطريق معبدة الى الذروة فهو جاهل تسلق الجبال ؛ ولا يقدم على المخاطرة التي لا مفرَّ منها الاَّ من كان قويًّا في عزيمته صادقاً في ارادته . قال (باينندر) «والمستقبل اقتراع صائب وخائب فالجبان لا يغامر فيه . بل هو ينظر اليه بعين بعيدة مرتقبة ؛ وقد يرى هناك نعماً سابغة لكنها سحيقة يحتاج في الوصول اليها الى عناء واما القريبة فقد تكون اقلَّ منها ولكنها قريبة التناول يستطيع ان يضمها الى صدره ضمًّا محكماً . واستبدال الاشياء الحسنة بالآمال التي هي احسن منها ممن يحتاج الى الرجل القدير كما ان تحويل هذه الآمال الى اشياء حسنة يحتاج الى الرجل المدبر » اهـ

والمِرة — او صفة الاستمرار على الحالة التي وجد عليها الشيء — هي الاصل في الجوامد وعليها يبني الطبيعيون كثيراً من التعليلات المتعلقة بحركة الاجرام وسكونها يعني يفرضون ان الجسم اذا بدأ متحركاً يبقى متحركاً الى الابد واذا بدأ بالعكس ساكناً يبقى كذلك الى الابد على شرط الاَّ تعتوره العوامل المعاكسة . وهنالك مرَّة حيوية اجتماعية في بعض الاقوام تشبه هذه المرة الجامدة يعني ان بعض هذه الاقوام قد تبقى على وضعها التقليدية الجامدة التي وجدت عليها لا تتزاح عنها قيد أنملة في وجه التطورات العالمية الكبرى كأنها طافئة على سطح غير هذه السيارة في حين ان غيرها لا يزال في حركة وانقلاب لا يثبت على شكل من الاشكال ولو كان في اشد حاجة الى الراحة واستجماع القوى . وكلا الموقفين من تفريط وافراط يضر بالجماعة ضرراً بالغاً فالجمود من الوجهة الحيوية الاجتماعية معناه الموت والتقلب معناه عدم الاستقرار لتثبيت الصفات المكتسبة — تلك وضعة هرمة اخنى عليها الدهر وهذه وضعة طائشة لا تأتي بخير

واذا اردنا ان نصف الموقف في العالم العربي اجمالاً فهو موقف تفريط وجمود وصفته البارزة هي التمسك بالقديم لقدمه وانقياد الى سنن الآباء والجدود انقياداً اعمى حتى كادت بعض اقطاره تعد من عالم القرون الوسطى . ولا يتهم صقع من اصقاعه بالثورة الاجتماعية كما يفهمها العلم ، وان كان هناك اضطراب سياسي لا شك فيه ؛ والنفخ في ابواق المحافظة في مثل هذه الحال ليس الاَّ تشجيعاً على اطفاء جذوة الحياة وروح التقدم والقضاء المبرم على فكرة الاصلاح . وما ينفع في روسيا المندفعة قد يكون ضارًّا في الحجاز الجامد وما ينفع في الحجاز قد يكون ضارًّا في روسيا لان طعام زيد كما يقول الافرنج في امثالهم قد يكون سمًّا لعمرو . والعلاج الذي ينفعنا في طورنا الحاضر هو من حيث الاساس التجديد لاننا لا نشكو عدم

الاستقرار بل نفكر المرأة الساكنة وليس احد منا معاباً بالسرعة بل كلنا بطيء . ولا نرى خطأ منطقياً مثل الجدل النظري في ايهما اصلح التجديد ام المحافظة من غير التفات الى احوال البلاد التي يتناولها الجدل . وقد نجا الاطباء من هذه السفسطة منذ صار الطب علماً فهم لا يبحثون في فائدة العلاج من غير نظر الى المرض اولاً والى المريض ثانياً والى درجة المرض ثالثاً ، واعطاء المنبهات عند هجوم الحميات مثلاً هو بالاجمال خطأ فادح مثل اعطاء المسكنات في ختامها . فلكل مرض ولكل مريض ولكل درجة مرضية علاج خاص ، وهكذا شأن الامم فانني ناصح امين اذا ما قلت للصين ان تتناول المنبهات وللروسيا ان تجرع المسكنات

وقد وصف الاستاذ (باينلر) الامم الخالية بقلة الحيلة وفقد الشجاعة الادبية اللازمة وفي نظره أن تدخل مطرقة الارباب في شؤون البشر المادية تدخلاً مستمراً جعل الانسان جباناً لا يجرؤ على شيء ومع ذلك فقد حصل الارتقاء وان كان في أول الامر بطيئاً جداً . وقال ان الدواعي التي ادت الى هذا الارتقاء ثلاثة ، (الاول) منها ان الانسان كشف مواطن الضعف في هذه الارباب من تناقضها بعضها مع بعض ومن فشل الاخيار الطائعين ونجاح الاشرار العاصين في كثير من الاحوال حتى كاد يتمثل بقول الشاعر العربي

كم عالم عامل اعيت مذاهبهُ وجاهل غافل في الارض مرزوقا

هذا الذي ترك الافهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

(الثاني) ان الدين اصبح اكثر رحمة بالناس واقل ضغطاً عليهم . (الثالث) ان الانسان تعلم الاعتماد على النفس في تدبير اموره وعرف صحة مثلنا العربي

ما حك جلدك مثل ظفرك فتولَّ انت جميع امرك

اسباب الاضطراب السياسي في العالم العربي : كان اهل العالم العربي اسياداً في بلادهم ولهم تاريخ حافل بسير الابطال وما فعلوه في ابان الفتوحات الاولى ، وقد نشأوا وهم لا يعرفون من الدنيا الا بيئتهم الخاصة وقد اصيبوا بالشيء الكثير من الغرور فلم يتنزلوا الى الالتفات الى غيرهم من اهل المدنيات التي تحيط بهم ، وقد استمرأوا بقوتهم حتى ظنوا الآخرين كمية مهملة لا يؤبه لها لذلك لم يعاشوا الانقلابات الخطيرة التي استحدثت في العالم حولهم ولم يتسلحوا بالسلاح المتكشف عن انواعه مادياً كان أم معنوياً لانهم اكتفوا بالتأييد الازلي الذي حسبوه ملازماً لهم كما لازم آباءهم واجدادهم فما عتموا ان صاروا فريسة بيد الاطماع الاستعمارية وهدفاً للسلطة الاجنبية . الا ان المدنية التي ازدانت بها بلدانهم في القرون الوسطى تركت في ذاكرتهم اثراً جلياً من عزة النفس حال حتى الآن دون اندثارهم ، والسلطان الذي تمتع به جدودهم احقاباً متعاقبة جعل الحرية هدفاً اسمى نصب عيونهم ، وولدت اعمال الابطال العرب فيهم فخراً كالفخر الفرنسوي بنابوليونه ، لكن هذه الانطباعات النفسانية لم تظهر على اتمها الا في النشء الحديث من ترقى

على الطريقة الغربية ونال قسطاً من الاتحاد القومي الحاضر ، فما صاح صيحته العالية وجد في سواد الناس مستمعين متحضرين فحدث في المجتمع العربي روح جديدة . ولا نكون قد وفينا هذا الموضوع حقه اذا نحن لم نشر الى الاثر البليغ الذي تركته مدارس الاستانة في شباب العرب لأن الترك كانوا قد سبقونا الى تفهم النهضة السياسية الحاضرة والاحاطة بمعنى الجامعة القومية فاحتكاك شبابنا بهم ولد في نفوسهم غيرة على القومية العربية وحرمة للتقاليد المتوارثة . لا جرم ان خريجي جامعة الاستانة من ابناء العرب كانوا السابقين في هذا المضمار، فكانوا يعودون من العاصمة العثمانية وفي نفوسهم ما فيها من الحماسة المشتعلة للنهضة العربية

وقصارى القول ان سبب الاضطراب السياسي الحاضر في العالم العربي هو العلم — والأصح هو العلم بالشؤون العامة الحاضرة ؛ فلو لبثنا على الخمول والاكتفاء بمجد الآباء والجدود التاريخي وحافظنا على طريقة الكتاتيب التي كانت سهل التعليم عندنا وتجنبنا الاختلاط والسياحة والاطلاع على مدنيات الامم الاخرى لبقينا راضين بما قسم لنا . اما وقد انجلت منا الاذهان وتنبهت المشاعر وتمثلت امامنا عظمة تاريخنا فلا بدع ان نبدأ حياتنا من جديد — ان نبدأ حيث ابتدأت الامم الحية اي بقلة القناعة وعدم الرضا ، ومن كان هذا حاله كان طلبه للعلاج امراً طبيعياً . كان المتأخرون من أسلافنا يجهلون ما في طاقتهم من القوة على العمل لانقاذ مرقفهم وما في ارادتهم من العزم لتذليل الصعاب واما نحن فاقل ما يقال فينا أننا خلصنا من هذا الجهل المطبق اذ أخذنا نشعر بما في مجتمعنا من القوة الكامنة المادية والمعنوية وعرفنا ان فكرة الجبر التي كانت مستولية على هذا السلف هي فكرة بالية تليق بالاقوام الابتدائية وان مصيرنا مربوط بعزمنا ؛ بيد اننا وياللأسف عند ما جربنا مساعينا رأيناها تذهب سدى لوجود اليد الغاشمة فوق رؤوسنا واستيلائها على مرافق حياتنا ؛ وما فتئت هذه اليد تحوّل هذه المساعي لمصلحتها المادية حتى انها تحمّل مدننا وقرانا الغرامات الباهظة كلما حاولنا ان نزيح كابوسها عن صدورنا فكأننا والحالة هذه عالقون بعسيلة فاذا ما حاولنا الخلاص ازددنا وقوعاً في التهلكة

واذا حللنا عللنا تحليلاً دقيقاً وأرجعناها الى علة كبرى شاملة وجدنا هذه العلة تنطبق على العلة الكبرى التي يشكوها المجتمع الاوربي ايضاً . فسواد الشعب هناك امسى على عقلية تختلف كل الاختلاف عن عقلية المتأخرين من سلفه وايقن ان الواجب ان تكون لمساعيه علاقة وثيقة بالحالة التي يتطلبها ولكنه هو مثل سواد الشعب عندنا خاضع لاوضاع بالية قد نشأت عن احوال تغيرت فلم تعد تلك الاوضاع مناسبة للظروف التي هو عليها. لاجرم ان مساعيه ايضاً اما ان تذهب سدى كصيحة في واد أو ان تظهر بشكل انقلابات سياسية واضطرابات اقتصادية خطيرة . وما لم تكن الاوضاع على تناسب مع الذهنية العامة وعلى ائتلاف

مع المساعي المشتركة فالسلام المنشود بعيد الاحتمال . وعلى كل حال فالتغير العظيم الذي رسخ في ذهنية الاقطار العربية الناهضة هو ان اصلاح تسها بيدها وان الارتقاء العالي المتحرك القائم على ارادة الشعب هو الارتقاء الذي ينقذها من محنتها العارضة لا الارتقاء الخلقي الجامد المبني على التجربة الشبيهة العمياء البطيئة

ولا جدال في ان قضايا الغرب هي غير قضايا الشرق اجمالاً وما يشكوه الغربيون من الشكوى قد لايكون له الا أثر ضئيل بيننا . فقضية الاشتراكية والشيوعية في اوربا هي قضية كبرى تنازع الرأسمالية وتصادمها صداماً عنيفاً وتهدد كيان النظم الاقتصادية والنظم الاجتماعية وهي لا تتولد عادة الا في الاوساط الصناعية الحافلة بالعمال . اما صناعتنا فلا تزال في بدء تكوّنها والعمال فينا لا يؤلفون تلك الطبقة المريعة الموجودة في وسط اوربا مثلاً . لذلك لم تجد الشيوعية في الشرق اجمالاً ارضاً خصبة مع كل تلك الجهود العظيمة التي صرفتها ولا تزال تصرفها حكومة السوفيت الروسية

وأول قضايانا — وهي اهمها على التحقيق — قضية تحرير بلادنا من ايدي الاجنبي حتى لاتذهب مساعينا سدى وحتى لاتتنافر ذهنيتنا مع الاوضاع التي نحن عليها ، فنظرة سطحية الى الخريطة تدل على ان جلّ الاقطار العربية تحت النير الاجنبي اما بالحماية او بالاحتلال او بالالحاق المباشر . ومن حسن الحظ — وقد يكون في بعض الاحوال من سوئه — ان الخطر الناجم عن زوال الاستقلال هو خطر بديهي الى حد انهُ طغى على سائر الاخطار حتى اصبحت البلدان العربية لا تفكر إلاّ في حريتها ولا تهدس إلاّ في استقلالها مما صرف نظرها إلى درجة بعيدة عن حاجاتها الاجتماعية الاخرى وجعل فكرة الاستقلال فيها شبيهة بما يسمى في علم النفس بالفكرة الثابتة او بالهوى . على ان ارتقاء الفكر من ناحية واحدة وطلب الاصلاح من جهة واحدة مع اغفال الجهات الاخرى هو عمل في نظر العالم اعرج لا يؤدي الى نتيجة ثابتة . فنحن مع حاجتنا القصوى الى الحرية نحتاج كذلك الى اصلاحات اجتماعية من الطراز الاول ، لاننا نعتقد ان الحرية من غير هذه الاصلاحات مهددة بالخطر . وليس التنازع بين الشعوب مقتصراً على ناحية واحدة من نواحي الحياة بل هو صراع عام شامل يتناول المجتمع من جميع نواحيه المادية والمعنوية . فلا غرو اننا في جهادنا مضطرون الى اصلاحات جمة تتعلق بالاسرة والدين والاخلاق والوطنية والحكومة والعلم والاقتصاد وغير ذلك من الشؤون الحيوية مما يتطلب بحوثاً خاصة سنعرض لها في سلسلة من مقالات مستقلة . وكنا نود ان يكون تأثير اتجاهنا السياسي الوطني في هذه الموضوعات الاجتماعية الخطيرة اكثر عملاً واشد نفوذاً ، ولكن جهودنا السياسية وبا للأسف تستنزف معظم قوانا